

## محتنان متشابهتان

خلق القرآن عند المسلمين ، تجسد المسيح عند المسيحيين

وحدة التطور التاريخي نظرية خلافة أخذ بها بعض المفكرين المحدثين وأنكرها البعض الآخر (١) وأشهر من تعمق في بحثها إلى أبعد حد ، المفكر الألماني سبنجلر ، وأسرف في إثبات نواحيها المتشعبة في كتابه الضخم «اضمحلال الغرب» . وهو كتاب خطير على ما فيه من غموض وتعسف وإسراف . ولا يستطيع الإنسان أن يتجاهل نظريات مفكر يرى قبل الحرب العالمية الأولى أن الدين الجديد الذي يقوم في العصور الحديثة ، يقوم في روسيا ، ويتحقق ذلك بعد بضع سنين عند قيام الشيوعية ، ويرى أن عظمة باريس ولندن ستزول وتحل محلها موسكو ونيويورك ، وكل ذلك عنده نتيجة حتمية لتطور المدينيات المختلفة ، وأن هناك تطوراً واحداً كان لا بد أن تخضع له الحوادث في الماضي ولا بد أن تخضع له الحوادث في المستقبل .

وليس لمثلئ وقد نشأ على دراسة الظواهر البيولوجية إلا أن يؤمن بصدق هذه النظرية . فالجنس البشري وأجزاؤه التي تتكون منها المدينيات المختلفة والأمم المتباينة ، كل هؤلاء كائنات حية تتبع قوانين التطور العامة . والناس كلهم شاهدوا من قديم أوجه الشبه بين الكائنات الحية ولكنهم لم يدركوا كنه هذا التشابه قبل أن تتبين للعلماء نظريات التطور . وكذلك أدرك الناس قديماً أن التاريخ يعيد نفسه ، ولكنهم لم يفهموا أن التشابه بين الحوادث التاريخية ليس تكراراً ولا عفواً ، ولكنه تحقيق لقوانين التطور الحيوي .

(١) أنكر فيشر في مقدمة كتابه «تاريخ أوروبا» أن يكون للتاريخ سير معين أو قوانين ثابتة فهو يرى أنه هو شخصياً لم توهب له القدرة على رؤية نظام معين يسير عليه تطور التاريخ وأنه لا يرى في التاريخ إلا مناسبات تقوم عليها ظروف تؤدي إلى وقوع الحوادث التي نتمدها .

وقد لا يتسع المقام الآن لشرح ما يدعوني إلى الإيمان بهذه النظرية ولا إلى إظهار الانقلاب الكبير في التفكير الإنساني لو أخذ بها جمهور المفكرين، وتبينوا أن الاتجاه العام للتاريخ لا سبيل إلى تغييره، وأن الحوادث الفردية لا تؤثر فيه إلا أثرًا محليًا مؤقتًا، وأنه مثلاً لم يكن بد من هزيمة ألمانيا في هذه الحرب، ولو قدر لها أن تنتصر بقبلة ذرية لكان ذلك خطأً في التاريخ كما تحطى الطبيعة، فتكون الكائنات المشوهة كما ادعى سبنجلر أن النصر في موقعة اكتيوم كان خطأً في تطور التاريخ، وكان يجب أن تنتصر كلوباترا.

ومما يدعوني إلى إثبات هذا الرأي أن توجد حوادث متباينة كل التباين وهي مع ذلك متشابهة جدًا في تطورها. ولم أجد حادثتين تثبتان وحدة التطور مثل محنة خلق القرآن عند المسلمين، ومحنة التجسد عند المسيحيين، فرأيت أن أعرضهما على القراء ليروا مظهرًا من مظاهر هذه الوحدة.

ودفعني إلى ذلك أيضاً أن مؤرخي العرب مثلهم في ذلك مثل غيرهم من المؤرخين القدماء كانوا يظنون أنهم مركز الكون كله وأنهم وحدهم المسرح الأول للتاريخ، ولم يحاولوا أن يربطوا تاريخهم بتاريخ غيرهم. بل إننا نجد المحدثين من المؤرخين المصريين لم يحاولوا بعد أن يقربوا بين تاريخنا وتاريخ الأمم الأخرى الحديثة والقديمة. ولو آمن الناس بوحدة التطور التاريخي عن علم واطمئنان لزال الوحشة بين المدنيات المتباينة وبين الشرق والغرب مثلاً، وتسهل على الناس أن يلتقوا في صعيد واحد حين يعملون أنهم كانوا يسرون في طريق واحد.

قليل من المسلمين من سمع بالجدل حول تجسد المسيح، وقليل من المسيحيين من سمع بالخلاف حول خلق القرآن. على أن كلا الفريقين حين يدرسون هاتين المحنتين سيدهشون حقاً للتشابه التام بينهما، وسيرون أن الطبيعة البشرية واحدة في تطور عقائدها ومظاهر إيمانها. وكلا المحنتين أبعد عن التفكير الحديث من أن يثير البحث فيهما عند المؤمنين من المسلمين أو المسيحيين أي أثر يزعج إيمانهم أو يمس شعورهم بحال ما.

وإليك أوجه الشبه من الناحيتين الفكرية والسياسية.  
فن الناحية الفكرية نرى أن عقيدة المؤمنين الأولين من المسلمين والمسيحيين كانت تتمثل في الإيمان الظاهر النقي البسيط الذي لا يشوبه التفكير الدقيق في مظاهر هذا الإيمان، ثم لم يلبث الناس أن بحثوا في هذا الإيمان وحكموا المنطق

والعقل وتلفسوا ، ولكن إيمانهم كان لا يزال قويًا فلم يؤد بهم البحث إلى الكفر ، وإنما التمسوا الهداية عن طريق التأويل . وتبين بعد قليل أن بعض هذا الإيمان يجب أن يضحي حفظاً لقدسية البعض الآخر ، وهنا بدأت تنشأ الطوائف المختلفة .

١ — رأى كبار الاتقياء والعلماء المخلصون ومعهم الجمهور أن مما يحس قداسة القرآن أن يقال إنه مخلوق ، ورأوا أنه لم يرد على ذلك نص فلم يستطيعوا القول به ، وكان موقفًا سلبياً غاظ أعداءهم أهل المنطق والكلام . وأنكر هؤلاء المؤمنون أن يكون لعلم الكلام دخل في مثل هذا البحث . . . وخشوا على أنفسهم أن يؤدي بهم الجدل إلى الاتزلاق في المروق عن إيمانهم الذي يعترفون به ، وأنه ما دام النص الصريح لم يرد عن النبي ولا عن الصحابة بأن القرآن مخلوق فالقول به جرأة على العقيدة الصحيحة .

وكذلك كان بين المسيحيين من يؤمن إيماناً صادقاً بأن الاتحاد بين ثنائي الثالوث وبين نفس إنسانية وجسم بشرى كان اتحاداً حقيقياً دائماً ، وكان ذلك هو الرأي الشائع بين المسيحيين حتى أوائل القرن الخامس الميلادي ، وكان تقديس مريم من أهم ظواهر الإيمان الصحيح .

٢ — الفريق الثاني هم الذين حكموا العقل مع الإيمان ، وهم المعتزلة عند المسلمين هالهم أن يشركوا مع الله شيئاً في قدمه ، وكانوا يرون أن القول بقدم القرآن يتنافى مع التنزيه الواجب لله على كل مسلم ، وأن الآيات التي يخالف ظاهرها التوحيد المطلق يجب أن تؤول وأن القول بغير ذلك شرك بالله .

كذلك كان عند المسيحيين من رأى أنه لا يليق بالإله أن يكون قد أقام تسعة أشهر في جسم مريم وأن يكون خرج من أحشائها كما يخرج الناس ، وأبى الاتقياء أن يتصوروا الطهارة الإلهية تابعة في جسم آدمي غير طاهر ، ولم يؤمنوا بأن الله الذي يشمل العالم يمكن أن يحد من نفسه في جسم مريم ، وهالهم أن يكون الله قد عذب وصلب أو أن علمه كان يشوبه الجهل ، وأزعجهم أن يكون مبعث الروح والأبدية لقي حتفه فوق جبل كالغازي .

رأى هؤلاء أن يفرقوا بين طبيعتي المسيح ، واختلفوا في ذلك شيعاً ، فمنهم من آمن بأن المسيح رجل عادي وإن كان خير بني آدم فاختره الله ليهدي الناس لعبادته ، فلما عمدته يحيى في نهر الأردن حلت فيه روح ابن الله على هيئة روح

القدس في صورة حمامة ، فلما سلمه الحاكم الروماني إلى اليهود تركته هذه الروح العالية يتألم ويعذب ويصلب .

ومنهم من قال بأن جسم المسيح ليس كالأجسام ، وأنه كان يأكل مع الحواريين دون أن يجوع أو يعطش ، فهو فوق العيوب الجسدية ؛ فالشكل والمادة كلاهما إلهي ، أما الرهبان المصريون فتمسكوا بأن الهيئة إلهية إنسانية ، لما ورد في التوراة من أن الله خلق الإنسان على هيئته .

٣ — فريق رأوا واجبا عليهم أن يتعدوا كل البعد عن هذه الآراء المارقة فأسرفوا في تقديس القرآن حتى قالوا إن نطقنا به قديم وأن حروفه قديمة ، وهو شطط لا يسوغه إلا شدة الرغبة في مقاومة الآراء المارقة .

ومن المسيحيين من أنكروا أن المسيح ولد وكبر ، ومنهم من لم يؤمن بما جاء في الانجيل عن تاريخه قبل رسالته ، ويقولون إن ما رآه الحواريون لم يكن إلا شبحاً جعله الله القادر على كل شيء في صورة إنسان ليلقى إلى الناس تعاليمه ، وإن تاريخ رسالة المسيح كان تمثيلاً على مسرح بيت المقدس لمصلحة الناس . واعترض عليهم أن مثل هذا الخداع لا يليق بالواحد القهار ، ولكنهم كانوا يرون كما رأى كثيرون يعدم أن الخداع لهداية الناس مباح .

٤ — فريق رأى أن كلام الله يجب أن يطلق على شيئين مختلفين كما هو الشأن في كلام الناس : الكلام النفسي وهو القائم بذاته وهو الأزلي القديم ، أما القرآن المكتوب المقروء فهو حادث بلا شك .

ويقابل هؤلاء عند المسيحيين من كانوا يؤمنون بفصل السيد المسيح الإنسان عن ربهم عيسى ، وكانوا يحترمون مريم على أنها أم المسيح ، وكان يؤذونهم أن تسمى أم الله ، وحدث أحد البطارقة الناس أن يسموها كذلك وقالوا تلك كلمة لم يعرفها الحواريون ولا التابعون ولم توافق عليها الكنيسة ، وإنها قد تفضل البسطاء وتسرع غير المؤمنين ، وهي بالضبط نفس الأسباب التي حرم من أجلها المحدثون النطق بخلق القرآن .

واشتد الجدل بين هذه الفرق ، وكان كل فريق يبلغ في جدله إلى حد معين ثم يزعمه أن يجد نفسه مسوقاً إلى القول بما يخشى معه الكفر ، فأصبح الجدل بين المسلمين منحصرأ في القول بأن القرآن مخلوق أو مجعول ، وقتل الناس للفرق بين هذين اللقطين .

وعند المسيحيين انتهى الجدل إلى هل المسيح من طبيعتين أو في طبيعتين ، وقتل الناس للفرق بين حرفي الجر الذين لا يستطيع الانسان في هذا العصر أن يجد من الفرق بينهما ما يسوغ هذا العداة الحاد . ثم قرر الجمع الرابع أن المسيح واحد وفي طبيعتين ، وبذلك وضع رجال الكنيسة الحد الفاصل بين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان ، وإن كان هذا الفرق أحد من السيف (١) .  
أما من الناحية السياسية فأوجه الشبه واضحة :

١ — حاجة الداعين إلى عقيدة معينة إلى استعمال القوة السياسية بحمل الناس على الإيمان بها . فالمؤمن أخذ على نفسه وهو صاحب الأمر أن يدعو الناس إلى القول بأن القرآن مخلوق حادث ، وحمل ولاته على أن يجمعوا الناس ويمتحنوهم فمن قال بخلق القرآن فقد ثبت إيمانه وصحت شهادته ، ومن لم يقل بذلك فهو مارق لا تصح شهادته لزيغ عقيدته . ثم اشتد المؤمن في استعمال القوة فرأى أن من لم يقل بخلق القرآن فهو مرتد ويحل قتله ، وأمر ولاته أن يمتحنوا الناس فمن لم يقل بقوله ضربت عنقه .

أما عند المسيحيين فلم يبدأ الإمبراطور بحمل الناس على عقيدة معينة في أول الأمر ، ولكن البطارقة في القسطنطينية والاسكندرية كانت لهم قوة سياسية كبيرة رأوا استغلالها في حمل الناس على الإيمان الصحيح ، فكان القديس كيرولس بطريق الاسكندرية يحكمها في الواقع وكان يستخدم عماله في الضغط على الحكام المدنيين وطرد اليهود من المدينة لكفرهم ، وذبح أتباعه فتاة كانت تعلم الفلسفة في الاسكندرية وسلخوا لحمها عن عظامها بقطعة من الحمار داخل الكنيسة .  
أما نسطورس بطريق القسطنطينية فقد استمد قوته من الإمبراطور فقال له عند توليه الحكم أعطني الأرض خالية من الكفار وأنا أعطيك مملكة السماء ، وبعد خمسة أيام أحرق ديراً لمخالفيه في العقيدة .

٢ — سرعان ما انقلب الخلاف الديني البحت إلى خلاف على النفوذ الدنيوى . فثلا غضب الوراق على أحمد بن نصر ودعا إلى قتاله لقوله بخلق القرآن ، وإن كان كثير ويرون أن سبب ذلك أكثره يرجع إلى ثورة أحمد بن نصر وخروجه عن الطاعة .

(١) أكثر هذا منقول حرفياً عن كتاب ضحى الاسلام الجزء الثالث وعن كتاب جيون اضحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية في الفصل السابع والأربعين .

أما عن المسيحيين فقد صارت الغايات الدنيوية واضحة جداً في كل أدوار الخلاف وتدخل رجال قصر الإمبراطور في المعركة واشتركت فيها أسرة الإمبراطور ينصرون إحدى العقائد اليوم وينصرون الأخرى غداً ، ولم يأنف القديس كيرولس نفسه أن يستخدم الذهب في ترجيح رأيه على رأى عدوه بل قبل على نفسه أن يعلن في غموض وعلى مضض ازدواج طبيعة المسيح (وهو ما لم يكن يؤمن به) ليتمكن من حمل الإمبراطور على الانتقام من عدوه .

٣ — أصبح الجمهور المؤمن الساذج عاملاً قوياً في النزاع في الحالتين ، فكان نفوذ عامة الشعب عند المسلمين في جانب المحدثين والسنيين ، ووجدوا بطلهم المنشود في أحمد بن حنبل لصلابته واتجهت أنظار رجال الدولة إليه ، ولم يستطع المعتصم أن يقتله كما قتل غيره لالتفاف الناس حوله ، ولو قتله لكانت فتنة واضطر إلى إخراجه من السجن بعد أن ضرب وعذب لأن الناس اجتمعوا حوله وضجوا حتى خاف السلطان ، ولعله أعجب هو أيضاً بشجاعته وثباته .

وكان للجمهور عند المسيحيين دور حاسم جداً في هذا النزاع الديني ، وكان أكثر الناس مخلصين للعدراء لا يريدون أن يعتنقوا مذهباً ينقص من مجدها . وواضح أن التعمق في بحث طبيعة المسيح لا يوافق بساطة إيمان الجماهير ، فصاحوا في مجمع أفيسيوس الثاني أن من قسم المسيح فليقسمه الله ولتمزق أعضاؤه وليحرق حيّاً .

ومن غرائب المصادفات أن يلجأ المأمون إلى تخرج مخالفه أمام الجمهور فيقول عن أحدهم إنه كان يسرق الطعام بالأنبار ، وعن آخر إنه مشغول بأكل الربا عن الوقوف على حقائق التوحيد .

وأن يلجأ رجال الدين في أحد المجامع المقدسة إلى أن ينسبوا إلى رجال الدين من مخالفهم أموراً منجّلة ، فقالوا عن أحدهم إن له عشيقه ، وأن بيته كان مفتوحاً للعاهرات وتوسلوا بذلك إلى عزله ونفيه .

٤ — سياسة المجامع وعقدتها لحسم النزاع بالمناقشة ، وحدث في كلتا الحالتين أن أصبحت قرارات هذه المجامع خاضعة للقوة : قوة السلطان تارة ، وقوة الجماهير والأتباع تارة أخرى .

فلأمامون دعا وجوه المحدثين مخالفه في الرأى وأمرهم أن يقولوا بقوله ، وقد وافقوه على ذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا السلطان وخاصة أن العقل

والحجة كانت في جانبه . وهذه الحادثة فتت في عهد المحدثين والعامه وأحزتهم ونعى أحمد بن حنبل على من وافقوا المأمون على رأيه هذا الخضوع للسلطان ، وكان يقول إنهم لو خالفوه حينذاك لنامت الفتنة قبل أن تستفحل .

أما إمبراطور القسطنطينية فقد دعا إلى مجامع كثيرة وتاريخ هذه المجمع طويل . والذي يهنا منه الآن هو أن أقوى أسلحة المناقشة في هذه المجمع لم تكن للحجة والافتناع ، وإنما كانت للقوة والمال وعدد الأتباع . ووقعت حوادث عنيفة جداً في هذه المجمع التي وصفت بعد بأنها مقدسة ، فحدث في مجمع أفيسيوس الثاني أن بطريق الاسكندرية شتم زميله بطريق القسطنطينية ورفسه وضربه ضرباً أدى إلى موته بعد أيام ، وأحاط الجنود بالقسس الحاضرين فهرب هؤلاء تحت الكراسي ووراء المنبر ووضعوا إمضاءاتهم على أوراق بيضاء ملئت بعد ذلك بالظعن على بطريق الاسكندرية .

هـ — كان لموت الأمراء أثر ظاهر في تاريخ الحركتين . فلما مات الواثق وبويج للمتوكل لم يتحمس للقول بخلق القرآن ولم يحمل الناس عليه ونامت الفتنة ، وقيل للفريقين إن كان قد وسع النبي والصحابة أن يسكتوا عن ذلك فهلا وسعكم ما وسعهم . وحدث أن وقع الإمبراطور من فوق فرسه ومات ، فتغيرت الحال وانقلب المهزومون إلى منصورين وغالى هؤلاء في الانتقام من أعدائهم وساموهم سوء العذاب على ما ارتكبوا حين كان السلطان معهم . وقال الإمبراطور الله يشهد أنه غير مسئول عن هذه الفوضى ، وحمل بذلك المتخاصمين كيرولس ويوحنا صاحب أنطاكية على التصافح فتصافحا خشية وحذراً لا عن التسامح القلبي الذي تدعو إليه المسيحية .

وكذلك حدث عند المسلمين عند ما انتصر الحنابلة أن انتقموا لأنفسهم من المعتزلة وكالوا لهم بكيهم وتمكنوا من الحكومة فأسرفوا في حمل الناس على اتباع مبادئهم بالعنف .

هذا مجمل تاريخ مختارين متشابهتين في أهم مظاهرها ، وهو توافق في الواقع غريب جداً حين نذكر أنه لا تكاد توجد بينهما علاقة تاريخية أصلاً .